



إن السَّعادة لا تأتيك عُنوةً ولا اسْتِجْداءً ..

إنما هي مَنبِعٌ تُرُّ بالعطاء، وأريجٌ فَوَاحٌ يَنْثُرُ شَدَاهُ في الآفاق، وإشراقَةٌ تُوَقِّدُ فتيلَ الرُّوحِ وتَصْهَرُ أشواقَ الأحلام، وتُعِيدُ للذَّاكِرَةِ رَقيقَ الخاطِرَةِ فتتفتَقُ كقطراتٍ نديَّةٍ من مُهَجَّةِ الحياة، ترطِّبُ ندوبَ الجِراحِ فتلتئمُ بلا مشقَّةٍ ولا عناءٍ ..

إنَّه الإيمان حين تَنْتَشِيهِ قلوبُ الأصْفِياءِ فَيُزَيِّنُ جبينها بِغُرَّةِ النَّصرِ، ويُقَلِّدُ جيدها المَعالي فتتَحَلَّى بالاعتزازِ والفخرِ، وترتقي به مراتبَ المَجْدِ التَّليدِ ومهدَ الأتقياءِ مَزيَّةً وتنالُ به سَجِيَّةُ أهلِ الكرامةِ والعزمِ، من عاشوا في الدُّنيا بزادٍ قليلٍ وهم في سَعَةِ ورخاءٍ، وماتوا وهم الأغنياءُ السُّعداءُ، وما أجمل ما قاله الإمام الشافعي في مدح هؤلاء ممَّن زهدوا في الدُّنيا وصانوا دينهم من التخبُّطِ في لُجَّةِ الفِتَنِ:

إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا فُطِنًا *** تَرَكَوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا

نظروا فيها فلما علموا *** أنها ليست لحيِّ وطننا

جعلوها لُجَّةً وَاتَّخَذُوا *** صالحَ الأعمالِ فيها سفنا

والسعادة.. لا تسكنُ قلوبًا جَوَفاءَ:

قد تعلقت بالآمالِ العريضة فتخلَّت عن مَقْومَاتِ الإيمانِ والفضيلةِ، وساقها الجحودُ والطُّغيانُ إلى الانحرافِ عن سُبُلِ الخيرِ والهدايةِ، وجذبَتْها أهواءُ الشَّهواتِ والملذَّاتِ فشردت في مرابعِ الكُفْرِ والضَّلالةِ، وخامرها الميْلُ إلى الدَّعةِ والرَّاحةِ فأفسدَ

سُلُوكِهَا، وَغَلَّ جَوَارِحُهَا بِأَغْلَالِ الْإِنْسِحَاقِ وَالْإِنْدِحَارِ فَشَلَّ تَفْكِيرَهَا عَنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ، كَأَنَّ عَلَى أَبْصَارِهَا غِشَاوَةً كَتَلَتْهَا الَّتِي خَتَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ)

قد ابتلاها الله تعالى بالحرمان من نعمة الغبطة وكرامة أهل السعادة، وأرسل على قلوبها سِجَافَ الحزن الكئيف، فصارت أشبه بمعتكفٍ ضجَّ من البكاء على الأطلال مشحونة بالضجر، لا تملُّ من تجرُّع غُصَصِ المرارة عن كتب، وضاقَتْ عليها الدنيا فلم تسعها برحابتها وانسأطها، كما ضاقت أرواحها بأنفاسها العليلة فلفظتها خارج شربانها الأعزل كدخانٍ حطبٍ يابس، وصدق الحق سبحانه حين قال في سورة طه: (فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا)

والسعادة.. في لذة الإيمان:

يشرق نورها الوهاج في قلوبٍ تعلقت بالله فاطمأنت إلى ركنه الذي لا يهد، وسكنت نبضاتها إلى وساد الراحة الرحيب كطفلٍ متعبٍ توسد راحة المهد، ترفُّ بشكواها فيهبها الحنين إلى وُجُوحِ روض السعد، وترتوي من سقائه الطيب العذب، وتستظلُّ بظلِّ نخله وتلتقط ما تُثمره الرطب من العذوق، وتتشي من لذة العبادة والذكر قطارة الشهد، في لقاء فريد له أسرارٌ لا يسبر أغوارها إلا العارفون بما تحويه خزائن الله من يواقيت الدرر، ولا يجتلي أنوارها الساطعة إلا ذوا البصائر الصاحية، والضمائر الخالصة، والألسن الذاكدة، والجوارح الطاهرة، من رزقوا التنعم بالطمأنينة وجمعوا الشمْلَ بأسباب الفرح الوارف، لما تطهروا من الذنوب وتحلّوا من المعاصي، وزهدوا في متاع الدنيا ورغبوا عن ملذاتها بالكفاف والرضا بالنصيب المقدّر، فحيزت لهم الدنيا بأسرها، وما أجمل ما قاله في هذا المعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافَىٰ فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمَهُ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا)..

والسعادة تسكن قلوبًا فرّت من لجة الأنداس وصدت عن شقوة الفتن، فعاد إليها الصفو يصدق بخفان الحب، ينفض عن رفوف ذكرياتها دُخان الوجع، ويخمد في صدرها الملتاع الكمد والقهر، فيهتف ركنها الخامل يستجدي وصلًا بالمعاني التي تحرك رفيف الروح، وتبعث في خلجاتها أكرم ذكرى وأشرف عهد، وأنبل مأرب، وأسمى قصد، فيلتحف صوتها الشاكي قليلاً من الصمت والسكون، لترسل المسراتُ بسمايتها مجلجلة في الزمن الرعد..

والسعادة.. في الجد والنشاط:

تتمثلها الحواس في هذا الوجود الفسيح فتقبل على الدنيا إقبال المُجِدِّين، لا يصرفها اللهو ولا اللغو، ولا فضول الكلام عن الإنتاج والتحصيل، تصون مكارم الأخلاق عما يزرها ويشينها، وتناى بنفسها عن مجالسة من اتقدت قلوبهم بالدخن والدغل، وتصد عن خالط عقولهم السفه والدجل، وتحفظ كرامة أهل المجد والشرف، وتصون هيبة أهل الوقار وسلطان أهل العلم، وتحث الخطي ساعية في الأرض بكدي ونشاط على شريعة أهل الرشد والصلاح، خالية الذهن من كلِّ وجلٍ أو عطل، تحصد سنابل الزرع، وتلتقط الحب والتمر، وتصنع يديها الرغيف والخبز، قانعة بلقيمات تقيم صلبيها، وتشد عودها، وتقوي ساعدها، ولا يهنأ لها عيش حتى يربو النبات ويخضر، وتتسع الرياض وتزهو، وتمتلئ السواقي، والجداول، وتفيض الأنهار بالماء العذب، لا يشغلها عن بلوغ غاياتها النبيلة طمع زائل ولا ترف زائد، ولا يصرفها عنها التعب فيما لا يعنى وإن كثر، ولا يحزنها التأسف على فوت ما لم يقدر، وتتوق همتها إلى ما يقربها من الله ويغنيها عما سواه، فتأتيها الدنيا راغمة مستبشرة،

مصداقاً لإرشاد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاقِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِرَ لَهُ)..

فما أسعد تلك القلوب التي وجدت ظلّها الوارف ورُكّنها الآمن، يذكرّها بما هو أعظم من كلّ شيء، ويلهمّها الخُشوع وتدبُّر آيِ الله في ذاك الوجود الرَّحْب، يحجُبُ عن عينيها النُّظْر إلى الحياة ويكشف لها النُّظْر للآخرة، فتلتذُّ بنشوة الغبطة..

المسلم

المصادر: